الهوية الإفريقية وتحديات الميراث الثلاثي

د. حمدى عبد الرحمن

أستاذ العلوم السياسية بجامعتى زايد والقاهرة

لقد ظل سؤال الهوية الإفريقية أحد الموضوعات المحورية فى الفكر السياسى والاجتماعى الإفريقى. كما كانت محاولات المفكرين والرواد من جيل الشوامخ أمثال بلايدن ونكروما، ومزروعى، وأبياه، تسعى دائما لحسم أزمة الهوية من أجل وضع الإفريقى فى سياقه الحضارى الملائم والصحيح. ومع ذلك، ظل تعريف من هو الإفريقى يكتسب طابعا أيديولوجيا ومعرفيا ويفتقد وجود منظور عالمى الطابع.

وربما تبدو الإجابة على مثل هذا السؤال بسيطة وواضحة ولكن مع تنوع الثقافات والخبرات التاريخية وتداخل مؤثرات قوى العولمة الحديثة، تصبح الإجابة ملغزة وبالغة التعقيد. ربما يحسم الانتماء الجغرافى المسألة، فأولئك الذين يُعرفون كأفارقة هم الذين يعيشون فى القارة الإفريقية ولكن قضية الجذور تطرح نفسها هنا، فقد يعيش البعض فى أفريقيا ولكن لديهم جذور خارجها حيث كان يعيش أسلافهم فى أوروبا أو آسيا أو العالم الجديد. ولعل البعض يلجأ فى التعريف إلى لون الجلد فى تحديد الهوية الإفريقية. لم يكن مستغربا أن يُعرف السود الذين ولدوا وترعرعوا فى الولايات المتحدة باسم الأمريكيين من أصل إفريقى. معظم هؤلاء لم تطأ أقدامهم قط أرض أفريقيا، ولكنه انتماء بسبب العرق ولون البشرة. يقول أشيليميمبي: "بالنسبة للكثيرين، لكى يكون المرء أفريقيا لابد أن يكون أسود البشرة»[1]. وتلك مسألة فيها نظر!.

دراسات

إن ربط الهوية بالمظهر الجسدى يشوه مفهوم الإفريقى الذى يتجاوز الحدود العرقية أو الدينية أو الجيوسياسية. إنه يعبر عن جوهر الفلسفات والأيديولوجيات والثقافات الإفريقية. وعليه فإن الهوية الإفريقية هى حالة ذهنية تعبر عن القدرة على الاتصال بإفريقيا. لذا، وبغض النظر عن اللون أو الجذور أو الجغرافيا، فإن أفريقانية المرء تكمن فى مدى قدرته على اتخاذ أفريقيا موطنا له. ويبدو أن الهوية الإفريقية غالبًا ما يُساء فهمها بسبب تطور تاريخ أفريقيا خلال المرحلة الاستعمارية. وسوف نحاول هنا بلورة مفهوم الهوية الإفريقية وتطوره فى فكر الرواد، ثم مناقشة أبعاد المفهوم وخصائصه والتحديات التى يواجهها فى ظل عصر بالغ التحول والتغير.

أولًا: تطور مفهوم الهوية الإفريقية فى فكر الرواد

لقد تمثلت الإشكالية الأولى فى الفكر السياسى والاجتماعى الإفريقى منذ البداية فى كيفية تبنى مواجهة حاسمة للمنظور الغربى وسردياته الكبرى المسيطرة. على سبيل المثال، يتضمن خطاب الزنوجة تأكيدًا على الهوية الإفريقية التى يتم التعبير عنها فى معارضة مباشرة للأنماط والقوالب الفكرية الأوروبية ذات النزعة المركزية المسيطرة. اتضح ذلك من الميل بشكل غير خاف فى الكتابات الإفريقية منذ ستينيات القرن الماضى للتوكيد على مسألة الوعى الأسود من قبيل: "قل بصوت عال، أنا أسود وفخور" و"أنت شاب أسود موهوب". إنه رفض لعلم الجمال الغربى من خلال التعبير عن مكّنون الجماليات الإفريقية. وسوف نركز هنا على ثلاثة أمثلة تمثل التيار الأهم فى دراسة مفهوم الهوية الإفريقية من خلال تبنى نموذج معرفى إفريقى حضارى.

١- بلايدن ومفهوم الشخصية الإفريقية

تتضح فى كثير من كتابات بلايدن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بما فى ذلك كتابه الأبرز "المسيحية والإسلام والجنس الزنجي"، نظرته إلى دور الإسلام فى أفريقيا باعتباره عامل توحيد يتخطى الخطوط العرقية. وعلى الرغم من تأثره العميق بالأفكار الغربية والتعاليم المسيحية كان بلايدن من أوائل المفكرين الأفارقة الذين أكدوا على خطر الاستلاب الثقافى. فقد انتقد دور البعثات المسيحية فى خلق حالة من الاغتراب الثقافى بغرض مَدينة وتغريب الأفارقة، وهو مايعنى عرقلة تطور "الشخصية الإفريقية". وعليه فإن مفهوم بلايدن للأفريقانية أو الشخصية الإفريقية قد تم تطويره لدحض الاتهامات الأوروبية الخاصة بدونية الجنس الزنجى. أى أن المفهوم ظهر فى فترة تاريخية شهدت هيمنة لمنظور غربى شديد التعصب ضد التاريخ والثقافة الإفريقية. لم يقصد بلايدن أن تتطور أفريقيا بمعزل عن المؤثرات الحضارية الغربية، ولكنه أكد على أهمية النظر والتدبر عندما يتبنى الأفارقة قيماً ومؤسسات أوروبية وأن عليهم أن يقدروا عاداتهم ومؤسساتهم التقليدية ويعتزّون بها. لم يكن مستغربا أن يبشر بلايدن بنمط من المسيحية يتكيف مع السياق الإفريقى، أى أفرقة المسيحية. وإذا كانت المسيحية التى جاءت مع المستعمر الأوروبى خلقت فى الأفارقة شعورًا بالنقص والخنوع وكانت عامل تقسيم بينهم فإن الإسلام، من ناحية أخرى قد أفاد الأفارقة بمنجزات الحضارة العالمية الكبرى دون أن يخلق فيهم الشعور بالنقص[٢].

فى أوائل الستينيات من القرن التاسع عشر بدأ بلايدن دراسة اللغة العربية. وفى عام ١٨٦٦ قام برحلة زار فيها مصر وفلسطين وسوريا بهدف تحسين معرفته باللغة العربية التى رغب فى إدخالها فى المناهج الدراسية فى كليّة ليبيريا. لقد أتقن بلايدن اللغة العربية قراءة وكتابة وتحدثا. وعندما تم تعيينه رئيسًا لكلية ليبيريا فى عام ١٨٨٠، سعى جاهدًا لتقديم برنامج دراسى متكامل يستجيب لاحتياجات أفريقيا الخاصة ويتضمن إدخال اللغة العربية فى المناهج الدراسية للجامعة وتأسيس كرسى خاص باللغة العربية ولغات غرب إفريقيا.

كان الإسهام الأساسى لبلايدن هو محاولته تفسير تاريخ وثقافة أفريقيا من منظور إفريقى خالص. لقد أكد على أن الأفارقة لا يمتلكون تراثًا حضاريًا جديرا بالاهتمام فحسب، ولكنهم يمتلكون كذلك ثقافة أصيلة وفريدة من نوعها. وعلى الرغم من ذلك كله، فإن الأفارقة لم يسهموا بعد بدور متميز فى تاريخ البشرية. وعليه، فإن أحد الشروط المهمة لإحياء دور أفريقيا وإعادة ترسيخ نفوذها يتمثل من وجهة نظره فى نشر المعرفة بأن الأفارقة لديهم تاريخ وثقافة خاصة بهم ويمكنهم أن يفخروا بها. والطريف أن الرجل كان مغرما بالحضارة المصرية القديمة حيث يعتقد أن "أبو الهول" يعبر فى رمزيته عن أفريقيا التى يتعين عليها إعادة اكتشاف ماضيها الحضارى. كانت الشخصية الإفريقية عنده جامعة لتشمل كل الأفارقة الذين يتقاسمون فكرة المصير المشترك. وعليه فقد رأى أن الأمريكيين من أصل إفريقى يتعين عليهم العودة للمساعدة فى الارتقاء بمستوى الأفارقة داخل أفريقيا.

«وبغض النظر عن اللون أو الجذور أو الجغرافيا، فإن أفريقانية المرء تكمن فى مدى قدرته على اتخاذ أفريقيا موطنا له»

ويمكن القول إن بلايدن فى محاولته التأكيد على الفروق الجوهرية بين القوميتين الإفريقية والأوروبية، استخدم مصطلح "الشخصية الإفريقية"، للتعبير عن السمات الفريدة والملامح المميزة لإفريقيا. وتشمل الهوية الثقافية الإفريقية العناصر التالية: يمتلك الجنس الزنجى إنجازات سابقة تشكل رصيدا حضاريا بالغ الأهمية؛ أيضًا سوف يعمل الأفارقة داخل القارة وفى الشتات على إحياء أمجاد القارة التليدة. كما تتمتع أفريقيا بمؤسسات اجتماعية فريدة من نوعها، لا سيما تلك التى تقوم على مبادئ العمل الجماعى وتوزيع الإنتاج وفقا لاحتياجات الناس. إلى جانب امتلاك الأفارقة قدرات متأصلة تميزهم عن كل الشعوب الأخرى، وهذه القدرات تشكل "الشخصية الإفريقية» [٣].

ولا شك أن أفكار الهوية الثقافية تشكل جزءًا لا يتجزأ من أيديولوجية القومية الإفريقية، ومبدأ الزنوجة بشكل خاص. وينظر إلى الزنوجة بحسبانها صرخة احتجاج قوية ضد الغزو الثقافى الأوروبى. إنها تسعى لحماية السمات المميزة للهوية الإفريقية. بعبارة أخرى، نُظر إلى الزنوجة على أنها إيديولوجية أفريقيا الناهضة. لقد أكد ليوبولد سيدار سنجور على ضرورة الحفاظ على الطابع المميز للثقافة والشخصية الإفريقية من ناحية، وعلى سمو العناصر الروحية فى شخصية الأفارقة، وعلى تصالحهم مع قوى الطبيعة ومع الله من ناحية أخرى. ولا يخفى أن المقابلة بين المبادئ الأساسية لمفهوم الزنوجة عند سنجور، ومفهوم بلايدن للشخصية الإفريقية هو أمر بالغ الأهمية فى تتبع سيرورة مفهوم الهوية الإفريقية[٤].

٢- نكروما وفلسفة الضمير

طرح نكروما أفكاره عن الشخصية الإفريقية فى كتاب فلسفة الضمير حيث حاول جاهدا تطوير نوع جديد من الاشتراكية التى تتوافق مع المبادئ الإنسانية الأصيلة التى يقوم عليها المجتمع الإفريقى. وبالتالى تشكل فلسفة الوعى الذاتى بالضمير "خريطة" من الناحية الفكرية لتمكين المجتمع الإفريقى من هضم واستيعاب المواريث الغربية والإسلامية والمسيحية الأوروبية فى أفريقيا، وتطويرها بطريقة تتناسب مع الشخصية الإفريقية. وفقا لنكروما، فإن الشخصية الإفريقية يتم تعريفها من خلال مجموعة المبادئ الإنسانية التى تكمن فى المجتمع الإفريقى التقليدى.

مفهوم الشخصية الإفريقية الذى تم التركيز عليه بشكل كبير من قبل الدكتور نكروما، يعد قوة محركة وإطارا فلسفيًا يستند على بنية ثقافية وفكرية إفريقية. يقول نكروما: "لقد مضى وقت طويل فى تاريخنا عندما كان الآخرون يتحدثون باسم أفريقيا. والآن، فإن ما أطلق عليه الشخصية الإفريقية فى الشئون الدولية سوف يكون لها تأثير واضح بحيث يسمع الجميع أصوات أبناء أفريقيا أنفسهم". بعد ذلك قال الدكتور نكروما: "فى تأكيدنا على شخصيتنا الإفريقية، سوف نكون أحرارًا فى التصرف وفقًا لمصالحنا الفردية والجماعية فى أى وقت بعينه. وسوف نكون قادرين على ممارسة نفوذنا فيما يتعلق بتحقيق السلام والحفاظ على حقوق جميع الشعوب فى تقرير مصيرهم وحقوقهم، بغض النظر عن اللون أو العرق، أو العقيدة، ولتتولى أمورها الخاصة بحرية وبدون خوف"(٥).

وهكذا، تم التأكيد على الشخصية الإفريقية خلال مؤتمر الدول الإفريقية المستقلة الذى عقد فى أكرا فى أبريل ١٩٥٨ من قبل جميع رؤساء الدول الحاضرين فى ذلك المؤتمر. فقد نص البيان الختامى على: "نحن ممثلى الدول الإفريقية المجتمعين فى أكرا عازمون على الحفاظ على وحدة الهدف والعمل فى الشئون الدولية التى أنشأناها فيما بيننا فى هذا المؤتمر التاريخي؛ والحفاظ على استقلالنا، وسيادتنا، وسلامة أراضينا التى تحققت بشق الأنفس، والحفاظ فيما بيننا على وحدة الموقف فى السياسة الخارجية حتى تصبح الشخصية الإفريقية ذات طابع متميز فى التعاون مع الدول المحبة للسلام الأخرى"(٦).

لم يعد الإفريقى فى فترة ما بعد الاستعمار كما كان عليه قبل الاستعمار. إنه شخص جديد يواجه تحديات مختلفة ولديه مواريث حضارية متنوعة. إن عليه أن يتبنى هذه الهوية الجديدة. وقد اقترح نكروما تحقيق هذه الهوية الجامعة والمتسامحة مع كل هذه المواريث بقوله: "من الضرورى التوصل إلى حالة جديدة من التوافق، تسمح بالوجود المشترك لأفريقيا التقليدية وأفريقيا الإسلامية وأفريقيا المسيحية الأوروبية، بحيث يكون هذا الوجود متوافقًا مع المبادئ الإنسانية الأصيلة التى يقوم عليها المجتمع الإفريقى. مجتمعنا ليس هو المجتمع القديم، ولكنه مجتمع جديد، أثرته المواريث الإسلامية والأوروبية. لذلك، هناك حاجة إلى أيديولوجية جديدة ناشئة، أى أيديولوجية يمكن أن يتم التوكيد عليها فى بيان فلسفى، ولكنها فى الوقت نفسه أيديولوجية تتمسك بالمبادئ الإنسانية الأصيلة لإفريقيا. ولا شك أن هذا البيان الفلسفى سوف ينبع من أزمة الضمير الإفريقى التى يواجهها المجتمع الإفريقى فى الوقت الراهن. ولعلى أقترح تسمية هذا البيان الفلسفى باسم فلسفة الضمير"(٧). وفى هذا الصدد، اقترح نكروما ثورة لإعادة البناء فى أفريقيا

المستقلة فى مرحلة ما بعد الاستعمار، بحيث تركز أساسا على التطورات الاجتماعية والثقافية والعلمية والاقتصادية والصناعية والتكنولوجية والتى يتعين إنجازها فى أقصر فترة زمنية ممكنة.

٣- على مزروعى ومفهوم الميراث الثلاثى

بدأ على مزروعى الاهتمام بسؤال الهوية الإفريقية بشكل مبكر فى عام ١٩٦٣ عندما نشر مقالته "حول مفهوم نحن جميعا أفارقة"[٨]. فقد شرح لنا كيف كانت الهوية الإفريقية نتاجًا معقدًا لعملية مزدوجة تعبر عن المتطلبات الاستعمارية من جهة، والمقتضيات الإفريقية من جهة أخرى. وتشمل المتطلبات الاستعمارية رسم الخرائط، وتقسيم أفريقيا وتأسيس نظم الهيمنة، والترويج لفكرة دونية الشعب الإفريقى الذى تم النظر إليه باعتباره متخلفًا وبدائيًا، وهو الأمر الذى أثار عن غير قصد ما وصفه جوليوسنيريرى بأنه "شعور إفريقى" كشكل من أشكال الوعى الذى جاء نتيجة الإذلال العرقى الاستعمارى للأجناس السوداء. أظهر مزروعى كيف أسهمت الزعامات الإفريقية الوطنية مثل: نكروما ونيريرى، وجمال عبد الناصر، وليوبولد سيدار سنجور، فى القيام بدور فعال فى اختراع وتأسيس الهوية الإفريقية الجامعة من خلال أدوات جديدة مثل مؤتمر الشعوب الإفريقية الذى عقد فى أكرا فى ديسمبر ١٩٥٨ من أجل "إعادة اللُحمة لإفريقيا" بعد "تقطيع أوصالها" فى مؤتمر برلين (١٨٨٤- ١٨٨٥).

> **«كان الإسهام الأساسى لبلايدن هو محاولته تفسير تاريخ وثقافة أفريقيا من منظور إفريقى خالص. لقد أكد على أن الأفارقة لا يمتلكون تراثًا حضاريًا جديرا بالاهتمام فحسب، ولكنهم يمتلكون كذلك ثقافة أصيلة وفريدة من نوعها»**

يعطى مزروعى فى هذه المرحلة المبكرة أهمية كبيرة لبعد الانتماء الجغرافى فى تحديد الهوية بحسبان أن مصطلح "الأفريقانية" يوحى بأن الجغرافيا هى العامل الحاسم فى التعريف، لأن "إفريقيا" هى تسمية جغرافية بالأساس. لذا نجد نكروما يؤكد على أن "الحقيقة الأساسية تظل هى أننا جميعًا أفارقة، ولدينا مصلحة مشتركة فى استقلال إفريقيا". وعلى الرغم من وجود هويات فرعية داخل هذا الفضاء القارى الإفريقى فقد كان "الشعور بالأفريقانية"، بمعنى الأخوة بين الأفارقة كما قال نيريرى، نتاج عوامل خارجية. وطبقا لنيريرى "لا يحتاج المرء إلى الدخول فى تاريخ استعمار أفريقيا، لكن الاستعمار كان له نتيجة مهمة واحدة، فقد نشأت مشاعر فى القارة الإفريقية تؤكد على مفهوم الوحدة".

أسهم الاستعمار فى اختراع مفهوم الهوية الإفريقية، أو بالأحرى خلق الوعى لدى الأفارقة بهويتهم المشتركة. ومن جهة أخرى أفضى رد الفعل ضد الاستعمار إلى خلق وعى جديد "بالتواصل الجغرافى". اتضح ذلك بجلاء فى خطاب جمال عبد الناصر حينما قال: "لا نستطيع، بأية طريقة وحتى لو رغبنا، أن نقف جانبا وبعيدا عن الصراع الدامى والرهيب الذى يندلع الآن فى قلب القارّة، بين خمسة ملايين أبيض ومائتى مليون أسود. ولا نستطيع القيام بذلك استنادا إلى مبدأ واحد ولسبب واضح: "إننا، نحن أنفسنا،

دراسات

فى قلب إفريقيا." ويقول فى مناسبة أخرى: "أما عن أفريقيا فلن نستطيع الفكاك منها، حتى ولو أردنا ذلك؛ فنحن جزء من القارة الإفريقية. والنيل، وهو سر وجودنا، ينبع من قلب هذه القارة".

ويخلص مزروعى من خلال تحليله لتاريخ أفريقيا إلى القول بأن الهوية الإفريقية هى نتاج مواريث حضارية ثلاثة – الأصولية الإفريقية، والإسلام، وتأثير الغرب[٩]. ويبدو أن مفهوم الميراث الثلاثى قد تم التعبير عنه بشكل أو بآخر فى أعمال كل من بلايدن ونكروما كما أوضحنا سابقا. على أن مزروعى يطرح إشكالية الثقافى والارتباط بالغرب وتأثير ذلك على الهوية الإفريقية بشكل أكثر وضوحا. يرى مزروعى أن أفريقيا هى فى حالة تحول ثقافى. ففى الوقت الذى يرى فيه ثقافات إفريقية بعيدة تماما عن تلك الموجودة فى الدول الغربية، فإنها مع ذلك شهدت "أسرع" عملية "تغريب" عرفها القرن العشرون. كما أنه يتم التحكم فى مصائر القارة بشكل غير متناسب من قبل نخبة متغربة. هذا الصراع الثقافى قد دفع بالأفارقة إلى الوقوع بين متناقضين "إما التمرد ضد الغرب أو تقليده والسير فى ركابه". ويلخص مزروعى التأثيرات الغربية الرئيسية على أفريقيا على أنها: المسيحية والديمقراطية الليبرالية والتحضر والرأسمالية الغربية وقواعد العلم الغربى.. والفنون الغربية. ولا شك أن أبرز وسائل انتقال الثقافة الغربية تمثلت فى وسيلتين مهمتين هما: العلوم الغربية، ونشر المسيحية عبر المدارس التبشيرية.

ثانيًا: ركائز وأبعاد مفهوم الهوية الإفريقية

من المعلوم أن أفريقيا تحتضن العديد من المجموعات العرقية والثقافية التى تصنف كذلك فى كثير من الأحيان تحت مظلة الكيانات العشائرية الصغيرة التى تجمعها روابط الدم والرحم والقيم المشتركة والمعتقدات الاجتماعية والثقافية. بيد أن هذه الهياكل العرقية والسياسية قد تكون متماسكة وأكثر تنظيما فى بعض البلدان مقارنة بما هى عليه فى البلدان الأخرى. ومع ذلك فإن جميع شعوب القارة تدعى وصلا بالهوية الإفريقية بطريقة أو بأخرى انطلاقا من مبررات متعددة تمثل جميعها مرتكزات تقوم عليها بنية المفهوم. ولعل من أبرز هذه الركائز[١٠]:

– **إفريقية الانتماء الجغرافى:** تتكون هذه المجموعة من هؤلاء الذين تصادف وجودهم فى أفريقيا دون رغبة منهم؛ أو من الأفراد الذين وجدوا أنفسهم يعيشون فى القارة بحكم ظروف خارجة عن إرادتهم.

– **إفريقية الميلاد:** فالإفريقى هو أى شخص ولد فى أفريقيا بغض النظر عن أصوله العرقية والثقافية، أو حتى انتماءاته السياسية.

– **إفريقية الاستيطان:** ينطبق ذلك على المستوطنين الأوروبيين فى ظل الأنظمة الاستعمارية الذين استفادوا من عمليات مصادرة الأراضى من السكان الأصليين الأفارقة لصالحهم. وقد قرر هؤلاء العيش فى القارة بعد الاستقلال، إما من خلال الاستمرار فى استغلال الأراضى الإفريقية أو بيع أراضيهم وممتلكاتهم لأفارقة آخرين والعمل بأنشطة أخرى.

– **إفريقية الثقافة أو التثاقف**: ينطبق ذلك على أى شخص قد لا يكون أفريقيا بحكم الدم أو الأصل العرقى، ولكنه عاش فى القارة لفترة كافية تمكنه من تبنى طريقة الحياة والثقافة والتقاليد الإفريقية.

– **إفريقية الانتماء الأيديولوجي**: ينطبق ذلك على أى شخص قد يكون أو لا يكون إفريقى الدم والانتماء العرقى، ولكنه إفريقى الهوى من حيث فهمه ومشاعره الإفريقية التى تقوم على الفكر والقيم الإفريقية الأصيلة.

– **إفريقية الانتماء الظرفي**: تتألف هذه المجموعة من الأفراد أو المجتمعات الذين يستخدمون الهوية الإفريقية لتحقيق أغراضهم الخاصة؛ أو بعبارة أخرى الأفارقة بحكم المصلحة. أعضاء هذه المجموعة لا ينتمون إلى أفريقيا بحكم الدم أو الانتماء الجغرافى ولكنهم أفارقة بحكم المصلحة التى دفعتهم إلى القارة دفعا.

«وقد اقترح نكروما تحقيق هذه الهوية الجامعة والمتسامحة مع كل هذه المواريث بقوله: "من الضرورى التوصل إلى حالة جديدة من التوافق، تسمح بالوجود المشترك لأفريقيا التقليدية وأفريقيا الإسلامية وأفريقيا المسيحية الأوروبية، بحيث يكون هذا الوجود متوافقًا مع المبادئ الإنسانية الأصيلة التى يقوم عليها المجتمع الإفريقى»

فى المقابل يرى بعض الكتاب أن البحث عن الهوية الإفريقية الجامعة أمر غير ممكن، لأن الأفارقة ليسوا سواء يعبرون عن مجموعة واحدة متجانسة، بل إنهم ينتمون إلى العديد من الشعوب والأعراق، مع تنوع فى المعتقدات الثقافية واللغات والتقاليد. ويعد الاتصال الإفريقى غير المتكافئ بالغرب السبب الرئيسى لأزمة الهوية الإفريقية ومشكلتها؛ فقضايا العنصرية والعبودية والاستعمار أدت لاشك إلى حالة من الغربة النفسية والثقافية للأفارقة، ودفعت أيضًا إلى فقدان الهوية الجماعية الإفريقية[11]. بيد أنه بغض النظر عن إشكاليات الهوية المجزأة فى الواقع الإفريقى، فإن الفكر الإفريقى ينحو دائما إلى تبنى مسألة التوفيق ليعبر عن هوية إفريقية جامعة تحتوى المواريث الثلاثة التى أشار لها بلايدن ونكروما ومزروعى. إذ يميز على مزروعى بين هوية الدم، وهوية الإقليم بالنسبة لمفهوم الإفريقى. فحق الدم يرتبط بعوامل العرق والنسب الخاصة بالجنس الأسود. أما الإفريقى بحق الانتماء للإقليم من ناحية أخرى، فهو يستند إلى مقوم جغرافى، حيث يكون الارتباط مكانا بالقارة الإفريقية من حيث الجنسية وأماكن سكنى الأجداد. وعليه فيُطلق على معظم سكان شمال أفريقيا وصف أفارقة بحكم الانتماء الإقليمى، وليس بالضرورة استنادا لهوية الدم. يعنى ذلك أن معظم الأفارقة فى الشتات فى الولايات المتحدة أو الكاريبى أو البرازيل هم أفارقة بحكم الدم، وليس بحكم الإقليم. وطبقا لهذا المعيار يصبح معظم الغانيين والنيجيريين والأوغنديين أفارقة بحكم الدم، أى الانتساب إلى الجنس الإفريقى، وأفارقة بحكم الإقليم، أى الانتماء الجغرافى للقارة الإفريقية.

دراسات

وطبقا لهذا المنطق يكون لدينا مجموعات متنوعة فى إطار الهوية الإفريقية تتألف من:

- **الأصول الزنجية الإفريقية**: وتتكون هذه المجموعة من الأفارقة السود فى مناطق جنوب الصحراء الكبرى التى يقطنها السكان الأصليون للقارة.

- **الأصول الأفرو-آسيوية**: تتكون هذه المجموعة من أولئك الذين جاء أسلافهم إلى أفريقيا من بعض مناطق آسيا، وبصورة رئيسية من الهند، سواء بحثا عن فرص أفضل للبقاء أو بمصاحبة الأنظمة الاستعمارية للعمل فى الوظائف الإدارية أو المهنية. ونظرا لإقامة هؤلاء الطويلة فى القارة فقد تأفرقوا وأصبحوا يحملون الهوية الإفريقية اكتسابا، وإن فضل البعض بيننا أن يطلق عليهم فى بعض الأحيان لقب "الآسيويين".

- **الأصول الأفرو-أوروبية**: وتتكون هذه المجموعة من أولئك الأوروبيين الذين قدموا إلى أفريقيا نتيجة للاستعمار أو لأسباب أخرى ولكنهم قرروا فيما بعد البقاء فى البلدان الإفريقية واكتساب هويتها مصلحة أو مصاهرة.

- **الأصول الإفريقية العربية**: وهى تشمل سلالة المهاجرين العرب أو المولودين نتيجة الزواج المختلط بين العرب والأفارقة ممن جعلوا من هذه القارة وطنهم بغض النظر عن موطنهم الأصلى.

- **الأصول العربية**: وتتكون هذه المجموعة من أصحاب البشرة الفاتحة الذين حافظوا بشكل أساسى على ثقافتهم العربية الإسلامية. وتتركز هذه المجموعة التى تحمل الهوية الإفريقية فى الجزء الشمالى من القارة، بالإضافة إلى السودان وبعض أجزاء من شرق إفريقيا.

ومن الواضح أن الهوية الإفريقية الجامعة التى تشمل جميع الأفارقة سواء من حيث الأصل العرقى وفقا لحق الدم أو الانتماء الجغرافى وفقا لحق الإقليم تتفق مع ما نادى به ثابو مبيكى فى خطاب "أنا إفريقى" الشهير بمناسبة إقرار الدستور الجديد لجنوب أفريقيا. وكان مبيكى خطيب التحرر الوطنى الذى شُبه فى براعته الخطابية بمارتن لوثر كينغ. يقول مبيكي[١٢]:

"لا أحد يجرؤ على أن يتحدانى عندما أقول: أنا إفريقي! أنا مدين بكيانى إلى خوى وسان[١٣] التى تخيم أرواحهم البائسة على مساحات كبيرة من الكيب الجميلة ..... إننى أنتسب إلى مهاجرين تركوا أوروبا بحثا عن منزل جديد فى أرض الوطن. مهما كانت تصرفاتهم الخاصة، فإنهم لا يزالون جزءا من كياني. تجرى فى عروقى دماء عبيد الملايو الذين جاءوا من الشرق... أنا سليل أولئك الذين تم نقلهم من الهند والصين، والذى ارتبط وجودهم فقط بحقيقة أنهم كانوا قادرين على توفير العمل البدنى، الذين علمونى أننا يمكن أن نكون داخل الوطن أو أجانب فى نفس الوقت، الذين علمونى أن الوجود الإنسانى نفسه يتطلب أن تكون الحرية شرطا ضروريا له. نظرا لكونى جزءا من كل هؤلاء الناس، سوف أصدع قائلا: أنا إفريقى».
ولا شك أن هذا المنحى الفكرى الذى عبر عنه كل من مزروعى ومبيكى فى تحديد من هو الإفريقى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بكتابات بلايدن الذى استطاع تطوير نظرية متكاملة عن الأجناس البشرية والتى تمثل أساس

فهمه لما يعرف بالشخصية الإفريقية وذلك من أجل دحض الافتراءات الأوروبية المتعلقة بدونية الجنس الإفريقى. وقد اتصفت الشخصية الإفريقية عند بلايدن بحب الطبيعة والتعاطف مع جميع الجهود المبذولة من أجل الحرية. لقد تحدثت كتابات بلايدن عن العديد من جوانب القومية الإفريقية مثل: المصير المشترك للشعوب الزنجية، والعقلية المميزة للأفارقة، ومكانة الدين فى حياتهم، والطبيعة «الاشتراكية الطوعية» للمجتمع الإفريقى، ومفهوم «أفريقيا للأفارقة».

ثالثًا: الهوية الإفريقية وإشكالية الاستشراق الأسود

لقد أثار موليفى أسانتى الجدل من خلال كتاباته التى شكلت جوهر حركة المركزية الإفريقية. فقد وضع الرجل الأسس الأيديولوجية والمنهجية لمقاربة الدراسات التاريخية والثقافية والاجتماعية التى نظرت إلى العالم، وخاصة العالم الإفريقى، من منظور إفريقى خالص، بدلًا من النظرة الأوروبية المركزية المهيمنة التى تدثرت بلحاف الموضوعية والعالمية الزائف. يطرح أسانتى فكرتين أساسيتين عن مفهومه للمركزية الإفريقية الأمر الذى يدفع به حتما إلى أحضان الاستشراق الأسود. تتمثل الفكرة الأولى فى مفهوم الذات الإفريقية الأصيلة. يرى أسانتى أن هناك ذهنًا أفريقيا جوهريًّا يقع فى قلب كل شخص أسود. بيد أنه بالنظر إلى التنوع القبلى والثقافى والدينى واللغوى لأفريقيا، ناهيك عن أفارقة «الشتات»، فإن أسانتى لم يستطع أبدا أن يستقر على تحديد هذا الجوهر الإفريقى الموحد. ثمة قدر من التناقض فهو يقر بأن «العاطفة سوداء» و«العقل يونانى» التى عبرت عنهما زنوجة أيمى سيزار وليوبولد سنجور، وفى الوقت نفسه يستحضر العقلانية الأكثر انضباطًا لشيخ أنتا ديوب، الذى اختلف مع سيزار وسنجور. على أى حال، مهما كان هذا الجوهر الإفريقى، فإن أسانتى يؤكد أنه لا يتوافق مع الإسلام. وهنا يفارق التلميذ أستاذه حيث يعد مزروعى أحد أهم الروافد الفكرية الكبرى التى أثرت على فكر مولفى أسانتى. الفكرة الثانية ذات الصلة فى أفكار المركزية الإفريقية هى محاولته الدفاع عن أفريقيا والشعوب السوداء ورد تهمة الدونية الثقافية والفكرية وعدم مساهمتهم فى الحضارة العالمية عنهم. ولعل ذلك يفسر لنا ظهور مصر، بوصفها مهد الحضارة الإنسانية، بشكل بارز فى الأطروحة الخاصة بالمركزية الإفريقية. ولكن إذا كانت أفريقيا، بما فيها مصر، موطنًا لحضارة مزدهرة وأسهمت كثيرًا فى العالم القديم، فكيف يمكن تفسير التراجع الحالى للقارة؟ بالقطع يلقى أسانتى اللوم على «الغزاة» العرب المسلمين الذين دمروا الحضارة الإفريقية المجيدة قبل مجيء الأوروبيين. فى الواقع، يذهب الرجل فى شططه حد القول إنه لولا المسلمون العرب، لربما وجد الأوروبيون حضارة قوية مزدهرة قد لا يستطيعون التغلب عليها. ويخلص أسانتى إلى القول بأن العرب قاموا بتقديم الإسلام بطريقة تجعل غير العرب مكرهين على استنشاق هواء لا ينتمى إلى عالمهم ويقبلون كرها كذلك فكرة التفوق العنصرى المتأصلة لدى العرب(١٤).

> **«يطرح أسانتى فكرتين أساسيتين عن مفهومه للمركزية الإفريقية الأمر الذى يدفع به حتما إلى أحضان الاستشراق الأسود»**

دراسات

والحقيقة أن ثمة اتجاها استشراقيا آخر غير الذى طرحه أسانتى حيث قدم ريتشارد برنت تيرنر اتجاها ذا صبغة دينية فى حركة الاستشراق الأسود. يرى تيرنر أن الفصل العنصرى بين المسلمين فى أمريكا فى القرن العشرين لم يكن بالمجمل نتيجة للقومية السوداء ولم يكن ظاهرة جديدة فى الإسلام، بل كان فى الواقع نمطا معياريًّا للسود فى الإسلام وجد فى أفريقيا قبل تجارة الرقيق فى المحيط الأطلسى(١٥).

وعلى عكس تيرنر واستشراقه الأسود فى نظرته السلبية لتفاعل الإسلام مع الجنس الأسود يرى أصحاب الميراث الثلاثى أن التفاعل بين أفريقيا والإسلام ارتبط بشكل كبير بالروابط المستمرة بين إمبراطوريات الغرب الإفريقى والمغرب العربى. كانت الروابط تنحو منحى فكريا فى غالب الأحوال، لكنها تضمنت أيضًا لحظات تعبر عن العداوة والصدام بين الطرفين كما حدث فى الفترة من ١٥٨٨-١٥٩١. يضع مزروعى على سبيل المثال تمبكتو فى إطار أوسع من التفاعل بين التقاليد العلمية الإسلامية والأسس الفكرية السوداء. انعكس ذلك بشكل واضح فى مراكز التعليم الإسلامى الأكثر شهرة فى أفريقيا وهي: جامعة الأزهر فى القاهرة، والتقاليد الأكاديمية الجماعية فى تمبكتو، وجامعة القرويين فى فاس المغربية. كانت المدن الثلاث للتعليم الإسلامى - القاهرة، وتمبكتو، وفاس- زمن العصور الوسطى مترابطة. فلم يكن مستغربا أن يقوم علماء من تمبكتو بالتدريس فى الأزهر وفى فاس والعكس بالعكس.

خاتمة

يشير «الميراث الثلاثي»- كما أوضحنا- إلى القوى الثقافية التى أعطت أفريقيا فى مرحلة ما بعد الاستعمار خصائصها الحالية وروحها الدافقة. وتشمل هذه القوى القيم الإفريقية الأصيلة، والإسلام، والثقافة الغربية. وقد اقترح نكروما ثورة اجتماعية لإعادة البناء فى أفريقيا المستقلة، حيث يتم التركيز على التطورات الاجتماعية والثقافية والعلمية والاقتصادية والصناعية والتكنولوجية، التى يتعين إنجازها فى أقصر وقت ممكن. وبالمثل، دعا غيره من جيل الرواد إلى ضرورة تحرير واستيقاظ العقل الإفريقى. ولعل هذه المهمة تقع على كاهل الأفارقة وحدهم حيث بمقدورهم تحرير العقل الإفريقى. وتماشيًا مع هذا النهج الفكرى والمعرفى المرتبط ببناء الهوية الإفريقية الجامعة، يجب أن توضع حقائق العصر الذى نعيشه فى عين الاعتبار. إذ لا يخفى أن ثورة العلوم والتكنولوجيا تشمل جميع مناحى الحياة سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية أو سياسية. وعليه، لكى تكون هناك هوية إفريقية حقيقية، يجب على أفريقيا أولًا أن تتمسك بتراثها الثقافى وقيمها الحضارية المتنوعة، وفى الوقت نفسه تؤهل نفسها تكنولوجيًا وعلميًا حتى تستطيع مواجهة واقع وتحديات الحياة المعاصرة.

المراجع

1 - Lloyd, V, (2016), Achille Mbembe as black theologian. Modern Believing, 57(3), p.p. 241-251.

2 - Frenkel, M. Y, (1974), Edward Blyden and the concept of African personality. African Affairs, 73(292), p.p. 277-289.

3 - Pawliková-Vilhanová, Viera, “The African Personality or the Dilemma of the Other and the Self in the Philosophy of Edward W. Blyden, 1832-1912”Asian and African Studies 7.2 (1998) p.p.162-175.

4 - July, R. W, (1964), Nineteenth-century negritude: Edward W. blyden, The Journal of African History, 5(1), p.p. 73-86.

5 - A. B. B. Kofi, (1958), GHANA: The African personality, Time 71, (17).

6 - Ibid, p. 328.

7 - Nkrumah, Kwame (1968), Consciencism: Philosophy and Ideology forDecolonisation. London: PanafBooks.

8 - Mazrui, Ali A, (1963) On the Concept of “We Are All Africans” The American Political Science Review, Vol. 57, No. 1 (Mar., 1963), pp. 88-97.

9 - Mazrui, A. A, (1986), The Africans: A Triple Heritage. London: BBC publications. pp 12-13.

10 - Mohamed A. Eno & Omar A, ”Surveying through the Narratives of African Identity” in Who Is an African? Identity, Citizenship and the Making of Africa-Nation, edited by JideoforAdibe, Adonis & Abbey Publishers Ltd, 2009.

11 - Dukor, M, (2010), African freedom of philosophy , Germany: LAP LAMBERT Publications.p.160.

١٢ - انظر حمدى عبدالرحمن، جيفارا الإفريقى، القاهرة : مكتبة جزيرة الورد، ٢٠١٥.

١٣ - هما من شعوب البانتو، وبينما يطلق على السان من الناحية الثقافية اسم البوشمن فإن الخوى رعاة هوتنتوت.

14 - Jackson S.A, (2009), Black Orientalism, In: Marable M., Aidi H.D. (eds) Black Routes to Islam, The Critical Black Studies Series (Institute for Research in African-American Studies). New York: Palgrave Macmillan.

15 - Ibid.

